الفصل السادس

دراسة الفلسفة

دراســـة الفلسـفة

قد يبدو عجيبًا أن الهند التى كانت فيما مضى من أبرز مراكز الدراسة الفلسـفية والنظر الفـلسفى ، تميل فى السنـوات الحديثة إلى التـقليل من الاهتـمام بدراسة الـفلسفـة ، ويتضـح هذا من قلة عـدد الطلبـة الذين يتـخصصـون لها فى درجـات الشرف والدراسـات العليـا فى مخـتلف الجامعات الهندية ، من ذلك أن إحدى الجامـعات الواقعة فى منطقة ما، أنبتت بعـضًا من أبرز الفلاسـفة ، لا فى الهند وحدها ، بـل فى العالم أجمـع ـ قد ضيـقت بقسـوة ، إن لم نقل أنـها ألغت إلغـاء تامًا تـقديم التسهيلات اللازمـة لتدريس الفلسفة فى كلياتها ، وحـتى الجامعات التى تقدم التـسهيلات الـضرورية لا تجتذب عـددًا كافيًا من الـطلاب ممن لهم الكفاية المطلوبة ، وعلى العكس من هذا فإنه فى جامعات مثل إكسفورد، وكامبردج ، نجد أن عددًا كبيرًا من الطلاب ـ بصرف النظر عن المهنة التى ينوون الاشتغال بها فى المستقبل ـ يقبلون على دراسة الفلسفة نظرًا لقيمتها وأهميتها فى تنظيم العقل .

ولقد تسـاءلت أحيانًا : كـيف أن الهنود الذين تمـيزوا دائمًا بعـقلهم الحساس الحاد ، وباهتـمامهم باكتشاف علة كـل شىء ، يبدون مثل هذا الإعراض عند دراسة الـفلسفة ، إن الميتافـيزيقا ، بما فيهـا من بحث عن الأسباب الأولى وغرامـها بالاستدلال الجدلى الصارم ، قـد تبدو للنظرة الأولى أنها أنسب الأشياء للعـقل الهندى المرهف اللدن ، ومع ذلك فإن

هبوط عدد الطلبة الذين يدرسون المواد الفلسفية أمر لا شك فيه ، فكثير منهم استهوتهم الدراسات الاجتماعية الأخرى ، وبخاصة الاقتصاد ، الذى يمارس نظرية المال ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الطلاب يحسبون خطأ أن المعرفة النظرية بالمال قد تؤدى بطريقة أو بأخرى إلى امتلاك المال، غير أن هذا لا يمكن أن يكون السبب الوحيد ، فلابد أن هناك شيئًا فى طبيعة المناهج وتنظيم الدراسات الفلسفية لا يحقق رغبة الشبان فى المعرفة المجردة ، أو أملهم فى تحسين أحوال الحياة ، لهذا فإن تكرار القول بقيمة دراسة الفلسفة ، وتحليل بعض نواحى النقص والقصور فى البرامج الحالية ، قد يعين على إزالة بعض الأسباب التى تجعل الفلسفة غير محببة إلى نفوس الشباب .

إن دراسة الفلسفة التى تحاول اكتشاف وفهم العلل الأولى للأشياء لها أهميتها فى كل وقت ، ولا تستطيع ثقافة أن تزدهر ما لم تفهم ما وراء مسلماتها الأساسية ، فهذه المسلمات غالبًا ما ينظر إليها باعتبارها المبادئ الأولى الصحيحة بلا ريب ، غير أن التفكير والتحليل يظهران دائمًا أنها فى الواقع مجرد افتراضات سلم بصحتها دون إدراك لكونها مجرد افتراضات ، وطالما أن الثقافة لا تتعرض لأى صراع داخلى أو تحد خارجى ، فإن موقف التسليم هذا لا يكون من المعوقات الكبرى ، لكن عندما تتقابل وتتعارض مختلف الثقافات والنظرات ، فإن أخذ هذه الفروض مأخذ التسليم يتضح أنه شىء غير كاف ، فالإنسان فى مثل هذا الموقف لابد له من أن يغوص بفكره إلى مضمون موقفه وعاداته فى التفكير والتصرف ، وأن يجد تبريرًا لها على أساس منطقى من الخبرة .

فإن لم يفعل هذا فإن الصدام بين المذاهب الفكرية المتصارعة يحطم ركيزة الإيمان التى تدعم حياته .

ويخبرنا علماء الإنسان أن الشعوب البدائية تنقرض حين تتصل بشعب متحضر ، ولا يرجع هذا فقط إلى التحطيم المادى الذى لابد لهم من مواجهته ، بل يرجع أكثر من هذا إلى تحطيم عالم معتقداتهم بفعل تأثير نظرة أكثر تقدمًا ووعيًا . والآن والعالم تقترب أرجاؤه بطريقة تدريجية ولكنها حتمية ، فإن المذاهب الفكرية المختلفة التى أنتجتها مختلف المجتمعات فى شتى العصور يجب أن يواجه كل منها تحدى المذاهب الأخرى . وإذا عجز الإنسان الحديث عن أن يمزج بين مختلف النظرات العالمية التى نبتت فى مختلف العصور والأرجاء ، فإن الأمل قليل فى بقاء أى مذهب من هذه المذاهب . لهذا تصبح دراسة الميتافيزيقا فى المحنة الحالية التى يجتازها تاريخ العالم ضرورة حتمية ، ولا يستطيع إنكار ذلك أى شخص له ضمير علمى .

إن كل عمل يعتمد فى آخر الأمر على المعرفة ، أو ما يظن أنه معرفة ولا يمكن لأى انسان عاقل أن يقيم خطته فى العمل على أساس ما يعرف شخصيًا أنه خطأ ، غير أن الصعوبات فى هذا الشأن إنما تنشأ عن أنه ليس من الممكن دائمًا التمييز بين المعرفة ما يظن أنه معرفة . ولو أن المعرفة كانت تشتمل على خاصية حاسمة تميزها من وجهة النظر أو الخطأ، لكان العالم أبسط كثيرًا مما هو عليه ، لكن لسوء الحظ نجد أن وجهة النظر والخطأ لا يعترف بها قط على أنهما كذلك ، حتى تبلغ مرحلة خاصة من مراحل المعرفة .

وثمة تعقيد آخر ينشأ من الخبرة ذاتها عملية تسير فى نمو مطرد ،

فيما يبدو أنه معرفة فى ظروف معينة ، ينظر إليه فيما بعد على أنه خطأ إذا حدث فى الظروف تعديل أو تعقيد . وكما أن إضافة ظل جديد يغير جو الألوان فى لوحة من اللوحات ، ويُحدث تغييرًا خفيًا فى تركيب الصورة كلها ، فإن اكتشاف حقائق جديدة من شأنه أن يغير معنى ومغزى ما سبق لنا أن عرفناه من حقائق ، إن التعقيد المتناهى للتجربة فى أية لحظة بذاتها ، واحتمال حدوث تغييرات بفعل الزمن ، يقتضى دائمًا إعادة بحث المبادئ ذات الفاعلية فى توسيع الخبرات .

وهذا الفحص هو إلى حد ما جوهر الفلسفة ، إنها ليست مجرد نقد لافتراضاتها الخاصة ، ولكنها أيضًا جهد للتعبير عما لم يعبر عنه من تجاربنا ، فالفلسفة تنقل إلى الوعى ما هو متضمن لا شعوريًا فى مواقفنا وأعمالنا ، والحاجة إلى هذا التحليل واضحة جلية ، إذا نحن تدبرنا طبيعة النشاط البشرى ، فحيث ينشأ العمل عن الوجدان لا يكون ضمانا لأن يكون العمل عامًا أو متسقًا بين الأفراد ، لأن الوجدان فى جوهره من الأمور الخاصة ، لهذا فإن السلوك أو الموقف الذى يعتمد على الوجدان جدير بأن يصدع بنيان المجتمع ، وحيث يعتمد العمل على الغريزة فلنا أن نطمئن إلى تشابه الاستجابات وردود الأفعال بين مختلف الأفراد ، غير أن الصعوبة فى شأن الغريزة أنها تميل إلى أن تحدث نموذجًا سلوكيًا بعينه فى نفس الموقف . فإذا تغير الموقف صار لا يعتمد على الغرائز كهادٍ أو مرشد للعمل . وفى عالمنا الحديث ، بما فيه من تعقيد وتغير ، لا تستطيع الغرائز بأى حال أن تكفل التشابه فى السلوك أو الفكر .

إن أهمية دراسة الفلسفة فى العالم الحديث أمر ضرورى إذن . وحتى

بعد التسليم بهذا يظهر سؤال آخر : هل هناك مبرر لدراسة تاريخ الفلسفة؟ وقد يتساءل البعض عن جدوى دراسة التاريخ بشتى أنواعه فتاريخ البشر ، برغم كثير من المحاولات التى بذلت لتحويله إلى علم ، لم يزل مجرد تجميع المشاهدات . وقد فشلت إلى الآن كل محاولة لوضع قانون عام فى التاريخ أو لتحويله إلى علم ، ونعتقد استنادًا إلى طبيعة الأمور أنها لابد لها من أن تفشل .

وبرغم ما يقال فى كثير من الأحيان من أن التاريخ يعيد نفسه ، فإن هذه القضية لا تكون صحيحة بغير شروط كثيرة ، إذن فإن الموقف التاريخى له من عديد العناصر وعديد الجوانب ما يجعل من الصعب علينا ، بل من المستحيل أن نفهم هذا الموقف بكل ما فيه من تعقيد ، وإذا نحن حكمنا بتشابه موقفين فإنما نفعل ذلك على أساس بعض وجوه الشبه الظاهرة ، ولكن لما كانت جوانب كثيرة تظل خارج نطاق ملاحظتنا فإن أوجه الشبه المشاهدة لا تعطى أى ضمان منطقى بأن الموقفين سيؤديان فى الواقع إلى تطورات متماثلة ، وفضلاً عن ذلك ، فإن كل موقف تاريخى هو نتيجة لأحداث تاريخية وقعت من قبل ، ومن هنا نستطيع أن نقول ـ إذا أردنا الدقة ـ أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يعيد التاريخ نفسه ، ومع ذلك فإن دراسة التاريخ ذات قيمة حقة فى فهم الأحداث المعاصرة ذاتها . وقد يجوز لنا أن نزيد على هذا أننا لا نستطيع فهم الحاضر ما لم نفهم الماضى ، لأن الحاضر هو إلى حد كبير نتيجة لما حدث فى الماضى .

وصحيح أن هناك خصائص تميز تاريخ الفلسفة من التاريخ السياسى أو تاريخ العلوم ، ففى الفلسفة يبدو أن كل فيلسوف يبدأ من البداية ،

ويقيم مذهبه عن طريق نقد ، أما فى العلم فيقيم العلماء نظرياتهم على أساس النتائج ـ إن لم تكن تخطئ ـ التى وصل إليها من سبقهم من العلماء ، كذلك تكشف الأحداث السياسية والاقتصادية عن آثار الأحداث السابقة ، ويمكن دائمًا أن نتتبع سير التقدم ، وبخاصة فى خلال فترة محددة ، أما فى الفلسفة فقلما نجد أى معنى كهذا لسير التقدم، وفضلاً عن ذلك نجد أن العنصر الشخصى يلعب فى صياغة الفلسفة دورًا أبرز بكثير مما يلعبه فى تشكيل الأحداث التاريخية ، ومع ذلك فكل هذه الاختلافات هى فى نهاية الأمر مجرد اختلافات فى الدرجة لا فى الجوهر ، ولقد يشك بعض الناس فى فكرة التقدم الحتمى فى الشؤون البشرية ، وحتى فى العلم نعلم أن بعض الحقائق التى وصل إليها الأسلاف لم يصل إليها الأخلاف فى أجيالهم المتعاقبة ، ومن جهة أخرى فإن الفلاسفة المتأخرين يمكنهم أن ينتفعوا من خبرة أسلافهم ، وهم يستفيدون فعلاً منها .

ولعل ما يفوق ذلك فى الأهمية أن دراسة تاريخ الفلسفة هى إلى حد ما جزء لا يتجزأ من دراسة الفلسفة ذاتها ، ففى الفلسفة يكون هدف الدراسة هو طبيعة المعرفة والموجود ، ولكى نصل إلى كنه هذه الطبيعة نحاول التمييز بين طبيعة الأشياء وبين الأشياء ذاتها ، فالأشياء ذاتها تشير إلى الوجود الذى يتأثر بالمكان والزمان ونظريته العلمية ، وهكذا تحاول الفلسفة أن تفهم طبيعة الأشياء دون تأثر بالمكان والزمان ، لهذا كان هدف الفلسفة غير زمنى إلى حد ما ، ومن هنا يميل تاريخ الفلسفة إلى أن يندمج فى الفلسفة ، ويجب علينا أن نذكر أيضًا أن الفلسفة لا تقتصر على محاولة فهم الهدف غير الزمنى ، ولكنها أيضًا تحاول أن تجعل الزمن

نفسه هدفًا للتحليل ، والواقع أن الفلاسفة يمكن تقسيمهم عمومًا إلى طائفتين على أساس موقفهم من مشكلة الزمن والتغير ، فمن أقدم العصور حاول بعض الفلاسفة اكتشاف الوحدة غير المتغيرة وسط مجرى التغيير ، كما حاول فلاسفة آخرون اعتبار الحقائق كلها وحدة مندمجة .

وهناك سببان آخران يجعلان دراسة تاريخ الفلسفة تمهيدًا ضروريًا لدراسة الفلسفة ، ذلك أن تاريخ الفلسفة يعلمنا أنه لا توجد عقيدة مقدسة تعلو على مستوى الشك والبحث ، ولقد استمسك بعض الفلاسفة بإصرار وإيمان بمعتقدات تبدو لنا سخيفة كل السخف ، ومن جهة أخرى فإن من الأمور التى تبدور لنا الآن من الحقائق البديهية ، ما كذبه تكذيبًا قاطعًا فيما مضى رجال من ذوى العقول الفذة ، لهذا فإن تاريخ الفلسفة يشجع دارسيه على أن يتخذوا موقفًا يجمع بين النقد والتواضع : «النقد» لأن روح البحث والشك لابد منها لإحراز أى تقدم فكرى «والتواضع» لأن التجارب أثبتت لنا أن أنبغ العباقرة لم يسلم من جوانب مظلمة فى عقله .

وهذا الجمع بين روح الاستطلاع وروح الهدوء والتجرد ، هذا الجمع بين الجرأة العقلية والتواضع العقلى ، يتمخض عن روح سمحة . وهذه الروح لا تقتصر أهميتها على دراسة الفلسفة ، بل هى ضرورية أيضًا لحسن التصرف فى تناول الأمور ، والنظر فى الفروض المتقابلة ، ومعرفة احتمال وجود عناصر صواب وعناصر خطأ فى أى منهما ، يخلق حالة عقلية تمكننا من أن نقبل ما يختلف عن آرائنا دون غضاضة أو عنف . إن توسيع ميدان التعاطف العقلى نتيجة لمثل هذا النظام يعين على خلق أساس نظام اجتماعى متحضر ، وما لم نستطع التسامح فى الخلافات

فإننا لا نستطيع إدراك قيمة الفرد . وبدون الاعتراف بكرامة الفرد لا تقوم ديمقراطية ، وبغير الديمقراطية لا يستطيع المجتمع أن يكون خلاقًا حرًا متعاونًا .

وبينما تاريخ الفلسفة هو لذلك من المقومات الأساسية الفلسفة ، فإنه مما يدعو إلى العجب أن دراسة هذا التاريخ من حيث هى نظام قائم بذاته ليست قديمة كل القدم . وصحيح أن فى التقاليد القديمة للفلسفة الهندية أو اليونانية ، كان الفيلسوف الفرد يقيم فلسفته عن طريق نقده لموقف أسلافه من الفلاسفة ، على أن هذا النقد إنما كان يهدف إلى إثبات رأيه. وبطبيعة الحال كان الفيلسوف لا يختار من جوانب فلسفة سلفه إلا ما يتصل بغرضه ، ولم تكن توجد ـ بقدر ما نعرف ـ أية محاولة لدراسة تطور الفلسفة كعملية منهجية وقد يكون من أسباب ذلك أن كثيرًا من هؤلاء الفلاسفة القدامى كانوا قبل كل شيء مهتمين بالعمل ، بينما الاهتمام بالفهم لذاته لم يحدث إلا فيما بعد .

وثمة سبب آخر أهم من الأول هو أن الفلسفة ، حتى الزمن الحديث، كان معظم نموها يأتى عن طريق التعليقات ، أما على ما كان يعتبر من النصوص المنزلة ، أو من أعمال فيلسوف كبير ممن يظنون به العصمة من الخطأ . وحتى حين كان النبيذ الجديد يصب فى قوارير قديمة فقد كان يبذل كل جهد لبعث الإيمان بأن النبيذ الجديد لا يختلف عن القديم. وهكذا كانت التطورات الجديدة لابد لها من أن تأتى تحت ستار من التمويه بأنها مجرد توسع فى القديم أو تفسير له . وكان لا مفر من أن هذا الموقف ، بما يحمل من إجلال مسرف لرأى الثقات ، لا يؤدى فقط إلى تعويق نمو المغامرات الفردية فى الفلسفة ، بل كان يعيق أيضًا

ظهور تاريخ الفلسفة الذى كان لابد له بحكم طبيعته من أن يقارن ويزن الآراء، أحيانًا بالموافقة ، وأحيانًا بالاعتراض ، ولا يستثنى من هذه النصوص القديمة سواء جاءت عن طريق الوحى ، أو عن أى طريق آخر .

ولا حاجة بنا هنا إلى الدخول فى مناقشة الأسباب التى أدت إلى انتقال الاهتمام بالفلسفى من المسائل الخلقية أو فلسفة الوجود إلى مشكلات نظرية المعرفة ، ويكفى القول بأن الانتقال فى ذاته شاهد على حيوية التقليد الفلسفى ، ومحاولته تقديم عرض شامل لكل جوانب الخبرة .

وفى الأزمنة الحديثة اتسعت معارفنا فى كل الاتجاهات ، وقد تحقق تقدم عظيم فى ميادين خاصة ، فى ذات الوقت الذى تحققت فيه زيادة فى عدد هذه الميادين ، وقد أدت الاتصالات بين مختلف المجتمعات والعلوم إلى كثير من التطورات الجديدة ، التى تتطلب مركبًا جديدًا من المعرفة كلها ، واستحداث نظرة جديدة ، لهذا كان من الاحتياجات العاجلة لعصرنا دراسة الفلسفة دراسة مركزة ، وتنمية روح فلسفية حقة، ولم يحدث فيما مضى أن اشتدت كما تشتد الآن الحاجة إلى البحث المنصف غير المتحيز للمذاهب الفكرية المتصارعة التى لابد من التوفيق بينها إذا أردنا صيانة العالم الذى نعرفه .

لهذا كان من دواعى الدهشة أن تقاسى الهند فى تلك الظروف الحرجة نقصًا فى الاهتمام بالفلسفة ، ولا يسع المرء إلا الشعور بأن هذا يرجع جزئيًا على الأقل إلى العيوب فى تنظيم البرامج ، ووسائل التعليم فى الجامعات ، وفى محاولة جعل دراسة الفلسفة نظامًا أكاديميًا بحتًا ، فإنه لا يلتفت غالبًا إلى الأصل التاريخى لتطورها الاجتماعى .

والواقع أن اللهفة على التجريد تميل إلى إنكار التفاعل بين مختلف جوانب المعرفة الإنسانية ، وحتى فى داخل الفلسفة توجد فجوات واسعة فى المعرفة ، تحول دون إدراك مغزاها الاجتماعى ، وقد رأينا أنه لا يمكن وجود دراسة فلسفية منهجية أو مرضية دون دراسة تاريخ الفلسفة ، ومن سوء الحظ أن هذه الدراسة لم تزل فى مرحلة غير مرضية على الإطلاق، فلدينا الآن أخصائيون يعتبرون من الثقات فى دراسة فيلسوف من الفلاسفة فى الشرق أو فى الغرب ، ولدينا أيضًا مؤرخون للفلسفة قدموا عرضًا منظمًا إلى حد ما لتطور الفلسفة فى منطقة بذاتها من العالم ، أو من الفكر البشرى ، ولكن برغم المحاولات العرضية التى بذلها قليل من المغامرين ، فإننا لم نزل إلى اليوم ليس لدينا مؤرخ للفلسفة يتتبع لنا تطور الفكر البشرى على نطاق عالمى .

والنظام الأوروبى فى تدريس الفلسفة هو الذى اتبع إلى حد كبير فى الجامعات الهندية ، يبدأ تاريخ الفلسفة بالإغريق ، وأقدم الفلاسفة الإغريق ينتمون إلى القرن السادس قبل الميلاد ، لكن قبل هذا التاريخ كانت الهند والصين بالتأكيد ـ وربما مصر ـ قد بلغتا درجة رفيعة من التطور ، فلسفة بوذا فى الهند ، وكونفوشيوس فى الصين ، توحى بوجود قرون عدة سابقة عليها كان فيها تأمل وبحث ، لذلك فلا شك فى أن الدراسة المنظمة للفلسفة قد بدأت فى تلك الأقطار قبل العصر المسيحى بألف سنة على الأقل ، إن لم تزد .

والفلسفة الإغريقية ذاتها تتضمن شواهد على وجود تأثيرات من الخارج ، لكن معلوماتنا عن هذه التأثيرات معلومات أولية ساذجة على أحسن الفروض ، كذلك لا علم لنا بالاتصالات بين المدارس الفلسفية

القديمة فى الصين والهند ومصر ، لهذا لا نستطيع أن نقرر إلى أى حد أدى تفاعلها إلى حدوث تطورات جديدة .

وفى السنوات القريبة أجريت دراسات مستقلة كثيرة للمذاهب الفلسفية الهندية والصينية ، وإن كانت الفلسفة المصرية لم تزل مجهولة ، أظهرت أن قدم هذه الفلسفات أمر لا شك فيه ، ومن المسلم به عامة أنها تسبق ظهور الفلسفة اليونانية بقرون إن لم يكن بآلاف السنين . ولكن لم يزل معظم التواليف فى تاريخ الفلسفة حتى اليوم يبدأ بقصة ظهور الفكر البشرى فى بلاد اليونان ، وهذا يؤدى حتمًا إلى إظهار دراسة الفلسفة بمظهر غير واقعى فى نظر الطلبة الهنود .

ويساوى هذه الفجوة الواسعة فى معرفتنا فجوة أخرى فى معرفتنا بتأثير الفكر الهندى على الفكر العربى ، ومن المتفق عليه عمومًا أن الفكر الهندى القديم قد أثر على فهم العرب للرياضيات والكيمياء والفلسفة ، ولعله توجد باللغة العربية مؤلفات تحكى قصة هذه التأثيرات ، على أن هذه لم تزل مسائل افتراضية إلى حد كبير ، ومن المعروف أيضًا أن العرب صانوا التراث اليونانى وحفظوه ، ونقلوه إلى أوروبا الحديثة ، لهذا كان تأثير الفكر العربى على أوروبا ذا نتائج غاية فى الأهمية . ويرى البعض أنه كان صاحب الفضل المباشر فى ظهور عصر النهضة ، ولا مبرر للاعتقاد بأن الدراسة الشاملة لهذا التأثير غير ممكنة ، إلا بعد اكتشاف الكيفية التى جمع بها الفكر العربى تلك العناصر التى ورثها من مصادر هيلينية وعبرانية وهندية ، وأعجب من هذا أن كثيرًا من طلاب الفلسفة لا يدرون شيئًا عن وجود تلك الفجوات ، أو عن نتائج التى ترتب عليها .

وقد يقتضى الأمر فى هذا الصدد أن نشير إلى مشروع كتاب «تاريخ الفلسفة» ، وهو المشروع الذى ترعاه حكومة الهند ، ففى سنة ١٩٤٨ اقترح مولانا أبو الكلام أزاد فى مؤتمر التربية لجميع الولايات الهندية أن الحكومة الهندية ينبغى لها أن تقوم بمشروع لإعداد «تاريخ الفلسفة» دون تأثر بالاعتبارات الزمانية أو المكانية .

ومثل هذا الكتاب هو وحده الذى يستحق أن يوصف بأنه تاريخ صحيح للفلسفة ، لأنه سيحاول تصوير عنصر الاستمرار فى تطور الفكر البشرى ، دون إشارة إلى أى عنصر بذاته ، أو شعب بذاته ، ذلك أن حالة المعرفة عندنا اليوم هى نتيجة للتعاون الذى استمر آلاف السنين بين كل شعوب العالم ، لكن لأسباب شتى نجد أن معظم كتب تاريخ الفلسفة الشائعة التى كتبها أساتذة أوروبيون أو أمريكيون ، إما إنها تتجاهل تمامًا إسهام الشرق فى بناء الفلسفة ، أو تكتفى بإشارة عرضية إليه .

ومن الجانب الآخر ، نجد أن الكتب التى ألفها أساتذة هنود أو شرقيون ، أما أن تُقصر همها كله على الفلسفة الهندية أو على مذهب بذاته من الفلسفة الشرقية ، لهذا يصعب إدراك الوحدة فى تطور الفكر البشرى .

وبالنظر إلى ما لاقته دراسة الفلسفة الهندية من إهمال فى الماضى ، فقد يكون من الضرورى أن نزيد عنايتنا بها فى جامعاتنا . وهذا هو السبب أيضًا فى أن الكتاب المقترح تأليفه عن تاريخ الفلسفة شرقًا وغربًا، سيعنى عناية خاصة بقيمة مساهمة الفلسفة الهندية فى تطوير الفكر البشرى.

إن تنظيم مناهج الدراسة فى جامعاتنا لم يزل غير مرضى تمامًا ، إنه لا شك فى أن الفلسفة الهندية قد وجدت لنفسها مكانًا فى تلك المناهج لكنها لم تزل تعتبر فرعًا خاصًا من فروع الفلسفة ، وأسوأ من هذا أن المناهج فى بعض الحالات تنظم بحيث تجعل دراسة الفلسفة الهندية مادة يختار الطالب بينها وبين مدرسة فلسفية أخرى .

وهكذا نجد فى بعض الجامعات أن الطلبة الذين يدرسون الفلسفة الهندية يظلون عن جهل بالفكر الفلسفى العربى ، والعكس صحيح ، لقد أعاد المؤتمر الفلسفى الهندى تنظيم أقسامه على أساس المواد ، ويبدو أنه كان ينبغى إجراء تنظيم مماثل فى مناهج دراسة الفلسفة بالجامعات الهندية ، منذ أمد بعيد .

إن حالة دراسة الفلسفة فى أمة من الأمم هى فى نهاية الأمر مجرد مقياس لحالة الصحة العقلية لهذه الأمة ، إن الإنسان لابد له من أن يفكر لكى يحيا ، ومن هنا كان لابد له من نوع أو آخر من الفلسفة ، وإنما يكون الاختيار الوحيد بين السليم من الفلسفة وغير السليم ، فالفلسفة غير السليمة ـ التى تعنى فى الواقع انعدام الفلسفة ـ قد تبث روح التعصب والجمود ، الأمر الذى يورث الهلاك فى عالمنا الحديث . ويقتضى تحقيق أغراض البقاء ذاته صيانة روح البحث الناقد ، والتواضع الفكرى ، والتسامح مع الرأى المخالف ، إن هذه تكون جوهر البحث الفلسفى ، وهى بدورها لا تتطور على أكمل وجه إلا من خلال اتباع النظام الفلسفى .

والحاجة إلى بعث جديد للفلسفة واجب علينا أن نضطلع به ، ويزيد من ضرورته تلك المحنة التى أوقع فيها تقدم العلم الحديث ، فالتقدم

الرائع للمعرفة العلمية من أروع الانتصارات التى حققها العقل البشرى . ولقد خلق لأول مرة فى تاريخ البشر ظروفًا جعلت من الممكن تهيئة مستوى كريم للحياة لكل إنسان ، كذلك أثمر تحرير الروح عن طريق القضاء على الخرافات القديمة ، وتقديم تفسيرات عقلية لكثير من أسرار الطبيعة .

ومع ذلك فإن العلم نفسه يواجه اليوم مشكلة بسبب تناقضاته الداخلية ، وكذلك بسبب انفصاله عن القيم الروحية ، لهذا أصبحت الجوانب المدمرة من العلم خطرًا يهدد بقاء الجنس البشرى . وهذه المحنة فى العلم والحضارة تتحدى الفلسفة ، وتتيح فرصة أمامها . فعلى الفلاسفة أن يحاولوا إعادة تقويم القيم القديمة ، وأن يأخذوا فى اعتبارهم أنه كان يحكم بالإعدام على المارق عن العقيدة . وبهذا وحده نستطيع أن نرفع قواعد معبد جديد للروح البشرية .

●● ●● ●●